الفصل الثانى

- في نهر الثورة المصرية، تفجرت عواطف الشعب.. مسلم.. مسيحى.. كتفاً بكتف.
- صور من الأشجان التى تثير الحب، والحزن، والقلق.
- من نفذوا حادثة القديسين ليلة رأس السنة، أرادوا أن تظل الجراح تنزف، ولا تشفى النفوس.

obeikan.com

obeikan.com

البابا شنوده الثالث
تاج على رأس مصر

(إن الذين يقضون حياتهم فى النقد، لا يكون لديهم وقت للعمل الإيجابى النافع للناس).

البابا شنوده

تأتى أهمية التذكير – فى إجلال – بمواقف الكنيسة الأرثوذكسية المصرية فى هذه الأيام، كدرس خاص فى الانتماء، والوطنية بالغ الأهمية.

لكى لا ننسى كمَّ الضغوط التى مُورست ضد الكنيسة منذ الحقبة الساداتية وقد تحملها ببسالة ووطنية البابا شنودة الثالث، دون أن يتزحزح قيد أنملة، مؤثرا النفى فى جوف صحراء مصر دون الاعتراف باتفاقية «كامب ديفيد» التى انفرد بالتوقيع عليها السادات، ولم يرضخ البابا شنوده للنوازع الدينية وهى تتوق لرحلة روحية، كان يقطعها الحجاج الأقباط من مصر إلى بيت لحم، وزيارة الأراضى العربية المقدسة، قبل أن تقع فى أيدى الاحتلال الصهيونى.

توالت بعد ذلك أسئلة كثيرة، بلورت ما كان بين مسلمى مصر وأقباطها فى شكل من أشكال النزاع الطائفى، ثم غطت المشهد الداخلى صور من التناقض، تثير الحزن والقلق.

قد تعود هذه المخاوف التى اعترت البعض إلى عدم التوصل لإجابة قاطعة حول بناء الدولة المصرية فى العصر الحديث، على حين توزعت القوى الاجتماعية بين القوميين، والإسلاميين، والعلمانيين، فى الوقت الذى كانت الدولة لا تسمح سوى بوضع أقنعة الادعاء – على وجهها – بسلامة ومتانة الجبهة الداخلية بين أبناء الوطن الواحد.

أولئك الأدعياء، ومن كان همهم الأول نشر كتابات اللامعنى وعدم توفير المجال الصحى لمعالجة قضايا الشباب، والهوية، والوطن، حتى أصبح الانتماء الدينى - على أياديهم - نفياً للآخر، فى الوطن الواحد.

لقد غرر هؤلاء بالشعب خلال ثلاثة عقود، لدرجة أن البسطاء كانوا يصدقون أن حكومات مبارك كانت تهتم بمعالجة أوضاع الاحتقان الطائفى المتصاعد بين أبناء الوطن، مسيحيين ومسلمين، الأمر الذى كان يسمح لهم بالتدخل الفورى والسريع لعزل من يريدون الإطاحة به وراء القضبان، وبسواعد قانون الطوارئ.

وما لا شك فيه أن السلطة الباغية نجحت فى مسعاها حينما أوهمت الشعب أنها حصنه الحصين، وهى التى تصد عنه بغى الإرهاب، وقد صدقها الكثيرون، لدرجة أن الكاتب المسيحى جمال أسعد رأى فى حادثة القديسين بالإسكندرية جريمة ذات أرضية طائفية، وأن مرتكبيها اختاروا توقيت الاحتفال برأس السنة بحيث لا تندمل الجراح ولا تشفى النفوس.

ثم يستدرك جمال أسعد موضحاً أن نتائج الحادث، وطريقة تنفيذه تؤكد للجميع أنه حادثة إرهابية، وإن كانت على أرضية دينية.

وسرعان ما تمزقت وجوه اللبس والتعمية، إذ لم يمض أكثر من أسبوعين على جريمة القديسين حتى اندلعت ثورة ٢٥ يناير بين أرجاء مصر كلها، وثبت بالفعل أننا كما نفكر «نعيش» و أكثر الأفكار حيوية هى تلك التى تتجاوز المستويات المألوفة للتجربة.

كانت تجربة شباب الثورة فى ميدان التحرير ذات خصوصية يعتقد أنها لن تتكرر فى الألفية الثالثة. إذ استبدلت وسائل المقاومة فى المرحلة الأولى بين الشعب المكافح بدخول الميدان - فى الأيام الأولى للثورة - ضد جماعة الإعلام

الحكومى، وإعلام رجال الأعمال وضد المنتفعين من فساد أجهزة الدولة ومن لا تزال فلولهم تعمل فى طابور يتمنطق بمفردات رثة، من نوع: «اذكروا محاسن ماضيكم!!».

ويتقدأتون الثورة بالمسئوليات الجسام عقب نجاحها فى إسقاط حسنى مبارك وأعوانه، ولم يكن ذلك بمستطاع إلا بسبب الوحدة الشعبية حينما أزالت الفروق الجنسية والدينية ونجحت فى انصهار المجتمع والعناصر الطبقية فى بوتقة النضال الشعبى الكاسح.

فى نهر الثورة المشتعل. تفجرت عواطف الإنسان المصرى.. مسلم.. مسيحى.. كتفاً بكتف، واشرأبت الآمال تطال فجراً يبدد الظلام، على الرغم من هطول الأمطار مدراراً على أجساد شابة عارية الصدور فيغتسل جميع من ناموا هناك طوال الليالى على الأسفلت بماء الطهارة، ثم يؤدون الصلوات، تلفحهم أنفاس سماوية، وتحيل الجميع إلى كتلة كبيرة لجسد واحد.

لم تكن هذه الشخصية المصرية التى دون رذائلها الأقدمون ولا هى أخلاقهم التى: «كان يغلب عليها الاستمالة والتنقل من شىء إلى شىء والدعة والجبن والقنوط والشح وقلة الصبر والرغبة فى العلم وسرعة الخوف والحسد والنميمة والكذب والسعى إلى السلطان وذم الناس وليست هذه الشرور عامة فيهم فمنهم من خصه الله بالفضل وحسن الخلق وبراء من الشرور».(٨)

لكن شباب ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ ليس لديهم أدنى صلة بتلك الرذائل التى ذكرها المقريزى وهو مفكر مصرى عاش فى القرن الخامس عشر، ومن لم يعرفهم يجهلهم، وتلك الأقوال قد ينسجم معها موقف رموز السلطة البائدة، إذ كانوا يترقبوا سقوط ميدان التحرير فى أيديهم، بالخوف، والنميمة، والكذب.

---

(٨) المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.

(ومن المتعارف عليه فى بناء الشخصية ومكوناتها أنك لا تستطيع مطالبة الشعب بالانتفاضة لكرامته، والعمل على تحطيم أغلاله قبل أن توفر للناس قسطاً من الاحتياجات الأساسية (لأن قوى النفس تابعة لمزاج البدن).

غير أن الذى حدث فى ميدان التحرير، كان شيئاً مغايراً تماماً عن كل المعايير والتعريفات السابقة.. هناك طاقة مدخرة، غير مرئية من فضائل النفس والشجاعة، ألهبت بنيرانها المطهِرة شتى النفوس، فخرج الناس من بيوتهم، يهتفون فى وجه رصاص الشرطة المطاطى والحى: الشعب يريد إسقاط النظام.

على حين ظل النظام يترقب على أمل أن ينهار الشباب بين نواجذ الجوع وينسحب من الميدان تحت زخات المطر، وصقيع ليالى يناير الشتوية.

لكن الذى حدث عكس ذلك تماماً، فحمداً لله وللشدائد والمحن التى أكسبت الشعب الثائر من الفضائل ما يجعله فى ساعة العسرة غير متوجس أو متردد أو متخاذل، بل وكشفت عن طاقة خلاقة، مبدعة، وغير مسبوقة تستطيع أن تحول الوهن، والحرمان، تحت أدخنة القنابل المسيلة للدموع والباعثة على الاختناق، إلى حلقات جماعية، تتغذى على مسرحة واقع شعب مصر على أرض الميدان، فى مشاهد غاية فى المتعة والارتجال.

ما يُميز الشعب المصرى أنه كان دائما يُفلسِف ما يقع عليه من جور وأرزاء وقمع يعيد صياغة آلامه فى لغة تهكمية ساخرة، ، أو يحولها إلى حلقات تفجر من أعماقها النكات التى تطهره من أردان الواقع، وترفع عن كاهله ما حاق به على أيدى طغمة النظام الفاسد.

كما يلاحظ أن الهتافات والشعارات التى لم تهز أرجاء مصر فحسب ولكنها أيقظت العالم فى انبهار، كانت وهى مفعمة بالوطنية تتخللها مسحة من الفكاهة، لتؤكد: أنه فى أعماق المآسى يمكن للفكاهة أن تنعش النفوس وتدفع

الثوار إلى المزيد من الإصرار. على إيقاع أغنيات لحنها الأزلى.

إن الأوضاع الثورية تشارك فى صنعها عوامل مادية واجتماعية (لكن التعبير الأدبى والفنى يُسهم أيضاً فى بلورة الوعى واتضاح لغة الرفض والاحتجاج).

وإذا كانت ثورة ١٩١٩ أعادت الروح لشعب مصر العظيم حسب رواية «عودة الروح» لتوفيق الحكيم ووجدت الشعب منقسماً على نفسه إلا فى حبه لسنيه. رمز مصر فى الرواية:

«فإن هذه الثورة كشفت لنا أن طاقة الشعب على العمل والعطاء، لا تحد، وإن معدن المصريين لا يزال سليماً بعد عقود من الشحن الطائفى المقيت والذى يبدو الآن من الأخبار التى كشفت عنها الصحافة مؤخراً، أنه كان مفبركاً فى أجهزة القمع، والإرهاب المؤسس المنظم، وقتل الروح المصرية، كى يستشرى الفساد ويتغوّل، وكى يتكرس الاستبداد ويتم توريثه للجيل الثانى من المستبدين».(٩)

وعلى درب التشرذم وإذكاء روح النعرات الطائفية، مضت حكومة مبارك فى خطوات حثيثة، ولم تكن تهتم بأن تتولى المؤسسة التشريعية والعلمية مهام إلحاق البلاد بركب الحضارة، وتطبيق استراتيجية متكاملة من أجل دعم قوى النهضة العلمية والفكرية، وضمان تماسك البنية المجتمعية وإكسابهاحصانة ضد محاولات النيل منها.

وما يثير الدهشة والاستهجان معاً، إن المتحدثين عن مستقبل المجتمع المدنى هم من كانوا يغضون الطرف عن ملاحقة انحراف المؤسسات العمالية والتعليمية والشرطية والزراعية والصحية والاستثمارية فى مصر.

كل ما كانوا يأملون فيه أن يملؤا أذن سيد قراره حاكم مصر و السيدة

(٩) صبرى حافظ (ثورة مصر.. وعودة الروح) مقال - جريدة الشروق الثلاثاء ١٥ فبراير ٢٠١١ ص١٢

الفاضلة حرم سيادة الرئيس بما يحبان الاستماع إليه، كوسيلة للتكسب غير المشروع، مع ارتفاع نبرة المطالبة – يوميا – بنهوض المجتمع المدنى :

« وتجاهلوا حقيقة أنه لا يقوم له قائمة إلا فى مجتمعٍ ديموقراطى يرتفع فيه سقف الحرية، ويكون للناس فيه حضورهم الفاعل، متمثلاً فى النقابات والأحزاب والمنظمات الأهلية، إلى جانب المؤسسات الأخرى كالقضاء والمجالس النيابية والبلدية.. لم يملك أحد من هؤلاء الجهابذة شجاعة الإعلان عن أن قضية الديموقراطية ضرورية لقيام المجتمع المدنى لأن ذلك المطلب موجه إلى النظام القائم، وهذا الإغفال ليس بريئاً ويتعذر السهو فيه، لأن الذين استحضروا فكرة « المدنى » لم يشغلوا أنفسهم بالديموقراطية أو بمشاركة المجتمع المدنى فى صياغة حاضره ومستقبله، ولكنهم ظلوا مهجوسين بفكرة إقصاء الدين بالدرجة الأولى. إن شئت فقل إنهم شغلوا بمرارتهم وتصفية حساباتهم بأكثر من انشغالهم بمعاقبة المجتمع أو مستقبله ».(١٠)

هذه الطغمة الفاسدة المتربعة على مقاعد الإعلام، لا تنتظر جماهير الشعب لها سوى أن تقدم للمحاكمة لأنها شايعت النظام القديم واهتمت بتلميعه للنفاذ من أبواب الاستيلاء على مقدرات الشعب وبيع ممتلكاته لصالح السلطان مبارك وآله وأصحاب ولديه المقربين، وقد توهموا أن السلطان الذى نال من « خيرهم » الكثير سيحفظ عليهم حياتهم، دون أن يعرفوا إنك ما أسديت للسلطان معروفاً إلا كرهك من أجله، وربما عاقبك عليه :

« لأن السلاطين لا يحبون أن يكون لأحد دين عليهم يطالبهم به، أو يؤاخذهم فيه، فالسلاطين أخطر على حلفائهم وأصدقائهم والمتعاونين معهم منهم على أعدائهم، لا يريد السلطان حلفاء، أو أصدقاء، لأن للحليف وللصديق حقاً والسلطان لا حق عليه، أو هكذا يشتهى أن يكون له عبيد، فهو عندها الكريم المغدق يفعلها لكرمه وهواه، لا أن عليه حقاً يؤديه أو جميلاً يرده ».(١١)

(١٠) فهمى هويدى (أجراس المحبة وأقراصها) جريد الشروق ١٥ يناير ٢٠١١.

(١١) تميم البرغوثى (من أدب السلطان) مقال – جريدة الشروق ٧ ديسمبر ٢٠١٠ ص ١٢.